العرب
الأربعاء 2021/07/28
السنة 44 العدد 12131

الثقافة ليست دولابا خامسا ولا هي بنت جارية

على المثقفين العرب أن يتّحدوا لإنقاذ الثقافة من الظلم المشروع

تعاني تونس منذ انتشار وباء كوفيد – 19 في مارس 2020 إلى اليوم حالة ركود ثقافية تتضخم يوما بعد يوم. فشلل شبه كلي أصاب مختلف أركان العمل الثقافي، ورغم محاولات بعض التظاهرات الفكاك من هذا الواقع الصعب، فإنه يبدو بأن هناك نوعا من التراخي في التعامل مع التظاهرات والأنشطة وخاصة المنتج الثقافي، على اعتبار أن الثقافة ثانوية.

جمهور الثقافة الأكثر التزاما بالبروتوكولات الصحية

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

هو تشبيه قد لا يليق - أدبا - بالثقافة والمثقفين ضمن منطق اللغة والاستعارة، لكنه مقاربة مقنعة لمن يحس بوطأة هذا التصحر الثقافي الذي أصاب العالم بسبب جائحة كورونا، وآلية البحث عن مخرجات لا تأتي إلا على حساب الثقافة والمثقفين.

تقول العبارة التي أوردها أحد المهتمين بالشأن الثقافي في مدونته على شكل تساؤل "لماذا تعامل الثقافة في بلادنا في ظل الجائحة، مثل جحش قصير.. يمتطيه كل من هبّ ودبّ، يشبعه ضربا عند كل أزمة، يحرمه نصيبه من العلف، ويحمّله مسؤولية التقصير الذي بدر من زملائه في المزرعة؟".

> **الجميع يقدر الشأن الصحي ودوره وأهميته الآن، ولكن لماذا تدعمه الثقافة وحدها دون غيرها من القطاعات الأخرى؟**

وإذا مضينا في هذه المقاربة المخجلة حقيقة في عالم الثقافة والحيوان على حد سواء، فإن "الجحش القصير" في بلادنا العربية، يتحمّل دائما، مسؤولية جوع زملائه في المزرعة وحاجاتهم، رغم أنه هو الذي يأتيهم بالعلف والتبن، ويضمن بقاءهم على قيد الحياة على المدى البعيد.

مطالب شعبوية

لننه هذا التشبيه الجائر ونمضي مباشرة إلى حال الثقافة في جائحة كورونا لنكتشف أن الجميع يتحدث بلغة "كل شيء للقضية" في ظل هذه الجائحة، ولا يجد أمامه إلا الثقافة للاقتطاع من نصيبها وكأنها أمر زائد على الحاجة.

وفي هذا الصدد تساءلت جريدة تونسية بقولها لماذا تجد الثقافة في تونس نفسها في مواجهة فايروس كورونا وفي مواجهة قرارات الدولة القاضية بإلغاء التظاهرات الثقافية والفنية وغلق المسارح وقاعات السينما ودور الثقافة لتبقى الثقافة وإنتاجاتها رهن الرفوف لا مكان لها في عالم يعيش صراعا مع عدوّ خفيّ عجزت الدول العظمى عن التصدي له.

وكذلك تساءلت منابر إعلامية وثقافية كثيرة في العالم العربي عن هذا "الظلم المشروع" في اقتطاع حصة الثقافة لصالح الشأن الصحي الذي يقدر الجميع دوره، ولكن لماذا تدعمه الثقافة وحدها دون غيرها من القطاعات الأخرى؟

حسنا، سنمضي بهذا الخيار نحو أقصاه، ونبصم أننا في حرب ضروس تفرض على الجميع التنازل عند سلم الأولويات، سواء كان في التزام البروتوكولات الصحية أو التخلي عن بعض المخصّصات في سبيل هذه الحرب الشاملة، ولكننا نطالب المعاملة بالمثل كأضعف الإيمان.

لماذا لم ينتبه المشرفون على إدارة هذه الحرب ضد كورونا أن الثقافة هي من أقوى وأفعل الجبهات في مواجهة الوباء عبر برامج توعوية تطال الصغار والكبار، ولا تشمل أصحاب المراويل البيضاء وحدهم، ولا مرتدي البدلات الأمنية والعسكرية في واجب الوقاية وتطبيق القوانين الزاجرة، بل كذلك أهل الفن والثقافة ضمن حدود الالتزام بالبروتوكولات الصحية.

اقتطاع ميزانية الثقافة لصالح الصحة هو نوع من الشعبوية الرخيصة التي ينادي بها الحزبيون والسياسيون وغيرهم من المخدوعين حتى في الوسط الثقافي. كان الأجدر هو دعم كل القطاعات لصالح مكافحة الوباء لأن لكل دوره من موقعه. وللثقافة دور تشهد به أعتى الحروب وأشرسها، ولنا في موقف الزعيم البريطاني وينستون تشرشل، في الحرب العالمية الثانية، أسوة حسنة، وخير دليل على أن الجميع في جبهة واحدة، وبسلاح لا يقل فاعلية عن غيره.

المثقفون بدورهم تخاذلوا، واستكانوا لما يروّجه الشعبويون من "ضرورة التضحية" في مجابهة كورونا، ظنا منهم أن المعركة لا تعنيهم، وعليهم الانتظار إلى أن ينهي أصحاب المراويل البيضاء والسترات السوداء والخضراء مهماتهم.

بعضهم اكتفى بالإشارة إلى هول الجائحة ودعا إلى حلول ترقيعية ذات نفس استسلامي وإن كان في ظاهره مطلبي مثل المرحوم التونسي علي مصابحية، الذي أشار قبل وفاته إلى أن التجربة أثبتت أن القطاع الثقافي كان من أكثر القطاعات هشاشة وعانى ولا يزال من تبعات كل ما يقيد حرية الفاعلين في الصناعة الثقافية خاصة وأن هذه الحرية باتت مصادرة من عدوّ غير تقليدي، واكتفى بالدعوة إلى تحصين المثقفين والفنانين عبر حقوق قانونية واجتماعية تضمن عيشهم الكريم في الأزمات.

لكن الأبعد والأعمق من ذلك كله ليس الجلوس على الربوة أو تحت الحائط بل المبادرة وتأكيد الحضور، وعدم القبول بتلك الدعوات الشعبوية القائلة إن على المثقف أن يتنازل عن دوره الطلائعي ويترك المجال للسياسي أو الميداني تحت ذريعة سلّم الأولويات.

بنت الجارية

الوضع الثقافي بائس في بلد كان يعج نشاطات مثل تونس، ويتنفس أهله فنا وفكرا في البعدين الثقافي والترفيهي. هل أغلقت دور السينما والمسرح وشتى العروض أبوابها لتفسح المجال لأسرة الأوكسجين؟

كفانا ضحكا على أنفسنا وكفى القيمين الفاشلين في محاربة الوباء استغفالا للناس. جمهور الفن والثقافة أحرص الناس على احترام البروتوكولات الصحية قبل رواد الملاعب الرياضية والأسواق التجارية، وحتى طوابير طلاب التلاقيح العشوائية.

يشهد التاريخ الحديث أن المكتبات ودور الأوبرا كانت تفتح الأبواب لروّادها في أشد الظروف حلكة بالبلدان المتقدمة، ولم تحرم حكومات غربية شعوبها من كسرة الثقافة والفن في أقسى حالاتها.

الفاسدون والمتخلفون هم الذين يرون الثقافة حاجة خارجة عن اللزوم، ويتذرعون بفكرة الأولويات الضرورية والأدبيات الاستراتيجية، في الوقت الذي يصرفون فيه مخصصات الثقافة على غير الثقافة.

خلاصة القول إن وباء كورونا لا يفتك بعشاق الفن والثقافة لأنهم يتقنون كل أساليب التوقي منه ويحذرونه جيدا وهم يقاومونه بالمزيد من المعرفة والاستمتاع كوسيلة مثلى لحب الحياة والذود عنها. ولا بد من أن يتوحد المثقفون العرب في سبيل توجيه دعوة صريحة إلى حكوماتهم بعدم استخدام الثقافة كدولاب خامس وشيء من لزوم ما لا يلزم.

هذه التعلة الكبرى في تحجيم دور الثقافة والفن وتهميشها تحت ذريعة الأولويات في جدوى مقاومة الوباء، باتت واهنة وغير مقنعة، أما الأخطر منها هو أن البعض من المثقفين قد اقتنعوا بها وتخلوا طواعية عن دورهم، مما يعزز القناعة أنهم غير مقتنعين بأدوارهم أصلا.

إلى متى تبقى الثقافة في عالمنا العربي تُعامل كـ"بنت الجارية" وتتنازل عن حصتها عند أول أكذوبة مثل "المجهود الحربي" الذي كان يقتطع مني شخصيا، عند كل مقالة أو عمل مسرحي كنت أقدمه في سوريا منذ سنوات قليلة.

تنافس بين الروائيين الجدد والكتاب المخضرمين في جائزة البوكر

لندن – ضمت قائمة المرشحين هذه السنة لنيل جائزة البوكر الأدبية البريطانية والتي أعلنها المنظمون الثلاثاء ستة روائيين سبق لهم الفوز بهذه المكافآت العريقة، بينهم أدباء كبار ككازوو إيشيغورو، على حساب أقلام جديدة.

وحصل المؤلف البريطاني من أصل ياباني كازوو إيشيغورو (66 عاما) على خامس ترشيحاته لهذه الجائزة الأدبية التي أطلقت سنة 1969 ويمكن للمؤلفين من أيّ جنسية التنافس عليها شرط أن يكتبوا باللغة الإنجليزية.

وهو فاز بالجائزة عام 1989 عن روايته "بقايا النهار"، لكنّه رُشح لنيل هذه المكافأة أيضا سنة 1986 عن روايته "أن أرتيست فروم ذي فلوتيغ وورلد" ("فنان من العالم العائم")، وسنة 2000 عن "عندما كنا يتامى" وعام 2005 عن "لا تدعني أذهب أبدا".

وتحمل روايات إيشيغورو، المرشح البارز لجائزة البوكر هذا العام، تأثير ثقافته الأم اليابانية ممتزجة بمسحة بريطانية مكتومة تنزع إلى خلق صلات عاطفية واهية باللغة الشعرية أو الحبكة المفتوحة بلا نهاية أو البيئة الصلدة المنفرة لسكانها.

وقد اكتسب تلك النزعة المكبوحة من ترعرعه في بريطانيا وتأثره بكتاب من أمثال جين أوستين رغم احتفاظه بصبغة خاصة به وتكوينه لعالم جمالي يتفرد به.

وقد رُشح الكاتب الحائز على جائزة نوبل للآداب سنة 2017، هذه المرة عن روايته الثامنة، "كلارا والشمس" التي تقدم "رؤية بريئة بعيدة من الأنانية عن السلوك الغريب للبشر المهووسين والمجروحين بالسلطة والموقع والخوف".

كما ضمت القائمة خمسة روائيين آخرين سبق أن رُشحوا سابقا لهذه الجائزة، وهم دايمن غالغوت عن روايته "الوعد"، وماري لوسون عن "مدينة اسمها سولايس"، وريتشارد باورز عن "الحيرة" وسونجيف ساهوتا عن "تشاينا روم".

في المحصلة، تم اختيار ثلاثة عشر عملا من لجنة تحكيم مكونة من خمسة أعضاء من بين 158 رواية منشورة في المملكة المتحدة أو أيرلندا في الفترة ما بين الأول من أكتوبر 2020 والثلاثين من سبتمبر 2021.

ومن بين هذه الأسماء الثلاثة عشر، ست نساء وكاتبان يُرشحان عن روايتهما الأولى، وهو عدد متدن مقارنة مع نسخة العام السابق التي شهدت ترشيح ثمانية كتّاب جدد.

وفي العام الماضي، مُنحت الجائزة للأسكتلندي دوغلاس ستيوارت عن روايته الأولى "شاغي بين" التي تتمحور حول عائلة من الطبقة العاملة في غلاسكو تكافح الإدمان على الكحول والفقر في ثمانينات القرن العشرين.

ووصفت رئيسة لجنة التحكيم مارغريت بازبي الرواية حينها بأنها "جريئة ومخيفة ومؤثرة"، خلال حفلة أقيمت في قاعة راوندهاوس في شمال لندن.

وأضافت أن قرار اللجنة كان بالإجماع وأنهم "استغرقوا ساعة فقط لاتخاذ القرار". مضيفة أن الكتاب المتوج "يمثل تحديا فهو حميمي وجذاب، كل شخص يقرأه لن يشعر أبدًا بنفس الشيء".

كما جاء في تقرير لجنة الجائزة "لقد طغت علينا هذه الرواية الأولى لكاتبها، حيث تخلق صورا حميمية وعاطفية أسرة ومدهشة للإدمان والشجاعة والحب. يقدم الكتاب لمحة حية عن مجتمع مهمش وفقير في حقبة ماضية من التاريخ البريطاني. إنه فحص حزين يائس وفي نفس الوقت يكاد يكون مفعما بالأمل لحياة العائلة والقوى والرغبات المدمرة".

تدور قصة "شاغي بين" في ثمانينات القرن الماضي حول عائلة تنتمي إلى الطبقة العمالية في غلاسكو، وترافق أحداثها الفتى الوحيد شاغي في رحلة بحثه عن الهوية. ويكنّ هذا الأخير محبة فائقة لوالدته المدمنة على الكحول، ويحاول دعمها بينما تكافح هي الإدمان والفقر، وتنحدر إلى اليأس بعد انهيار زواجها وإبعاد جميع أطفالها عنها باستثناء شاغي الذي يتشبث بمساعدتها بينما يعاني بدوره من مشاكل شخصية كبيرة.

وهذا العام يبدو الكتاب المخضرمون الأكثر ترجيحا للوصول إلى القائمة القصيرة للجائزة الأدبية العريقة، حيث ستكون المنافسة قوية بين روايات الكتاب المكرّسين والروايات الأولى للكتاب الجدد.

كازوو إيشيغورو أبرز الكتاب المرشحين

The Booker Prizes

الجائزة تختار ثلاث عشرة رواية لكتاب منهم من نال جائزة نوبل للآداب ومنهم من يترشح بروايته الأولى

وسيُعلن عن الأسماء الستة للمرشحين النهائيين في الرابع عشرة من سبتمبر، قبل اختيار الفائز في الثالث من نوفمبر، مع مكافأة مالية قدرها خمسون ألف جنيه إسترليني (69 ألف دولار).